قبل الغروب

عند حلول منتصف الليل
عم الرقاد بابل العظيمة كلها
فقط في القصر الملكي
اجتمع أوباش الملك
هناك جن جنونهم يسكرون

هـ. هايني بلزاتسار

في ليلة السادس من تشرين الأول «٧/ ١٠/ ٥٠٢» ق.م مات نبوخذ نصر الثاني مؤسس الإمبراطورية، وانتهت فترة تملكه التي امتدت ٤٣ عاماً تاركاً بعده عدة أبناء يحملون لقب ابن ملك «مار - سارّي - Mar - Sarri» - آمل[أ] - مردوك ومردوك - شوم. اوتسور وموشيزيب - مردوك ومردوك - نادين - آخي[1] وبعل - شارو - أوتسور «بيلشاصر» وأرملة هي الملكة المصرية نيتوكريس «نيتاكريت» والدة بيلشاصر.

وللحال أجلست الطبقة العليا الكلدانية التي تشكل الدائرة الملكية على العرش آمل - مردوك الابن الأكبر للملك المتوفى، وكان إقرار السلطة الملكية الوراثية بهذا الشكل من دون إذن قد أخذ الطبقة الأوليجاركية بغتة على حين غرة فاستسلمت وبدأت على الفور تستعد للصراع وشعر آمل - مردوك بسرعة بذلك.

وتوتر الوضع السياسي الداخلي للغاية من جرّاء الأزمة التي أحدقت بنظام التوازن وكان الميديون مستاؤون للغاية من التقارب البابلي - المصري ومن بناء التحصينات على حدود بابل، وفهم الميديون أخيراً أن نظام التوازن الدولي موجه ضد محاولاتهم في الاستمرار بالتوسع، وبالفعل وسعت ميديا حدودها من الشرق إلى سهوب وجبال آسيا الوسطى وشرق إيران، أما من الغرب فارتطمت بالحدود مع ليديا

أ- أورد المؤلف اسم الابن الأكبر آمل- مردوك بينما اسمه أويل- مردوك أو مردوخ كما ورد في سفر الملوك الثاني الإصحاح الخامس والعشرين العدد ٢٧ الصفحة ٥٣٣- المترجم.

obeikandl.com

ومع بابل، والغرض التالي للغزو يمكن أن يكون فقط بالاستيلاء على هاتين الدولتين وبالدرجة الأولى بابل وأطلق موت نبوخذ نصر الثاني يد الميديانيين والنبي اليهودي الأسير الذي جرى عنه الحديث في سفر النبي أشعيا[أ] الذي أبلغ مواطنيه بالهجوم المقبل للميديين والعيلاميين على بابل هتف نحو الساميين «فأجاب وقال سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض»[2] وفي الواقع فقد البابليون سوز التي استولى عليها الفرس حلفاء الميديين ولكن حتى الحرب مع ميديا لم ينته الأمر.[3]

ووجد آمل - مردوك المصطدم مع الأوليجاركية المعارضة المدعومة من ميديا المعادية الدعم من الأقاليم بشهادة الكتاب المقدس: في ٢ نيسان عام ٥٦١ ق.م أي «في السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويل - مردوك ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن وكلمه بخير وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل، وغير ثياب سجنه وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من عند الملك أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته»[4]

إلا أن حكم وأيام آمل - مردوك كانت معدودة حيث دبرت الأوليجاركية ضده مؤامرة وما بين ٧ و ١٣ آب من عام ٥٦٠ ق.م كان قد أسقط عن العرش وقتل، وكان المتآمرون بقيادة الجنرال الكلداني المعروف عندنا سابقاً نرجال - شارو - اوتسور ابن بعل - شوم - إشكون المتزوج بابنة الملك نبوخذ نصر الثاني وأخت آمل - مردوك.

ونادت التابعية البابلية بفرح عظيم بنرجال - شارو - أوتسور ملكاً على بابل.

أما الحزب الكلداني فلم يقف معارضاً لذلك.

وتم التوصل إلى حل وسط بين الحزبين المتنافسين، وأرضى نرجال - شارو - أوتسور كلا الطرفين، فالطبقة العليا الكلدانية اعتبرته لها لأنها رأته كلدانياً جنرالاً مشهوراً قاهر أورشليم، زد على ذلك إنه صهر نبوخذ نصر الثاني، أما بالنسبة

أ- أشعياء- ومعنى الاسم «الرب يخلص» وهو النبي العظيم الذي تنبأ في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ويرجح أنه عاش إلى أن جاوز الثمانين وكان يقطن أورشليم، ويذكر سفر صعود أشعيا، وهو واحد من الأسفار غير القانونية، أن أشعيا مات منشوراً بالمنشار تنفيذاً لأمر الملك منسى وإضافة لكونه نبياً كان كاتباً ومصلحاً اجتماعياً وسياسياً محنكاً وذا أراء لاهوتية سامية- المترجم.

للأوليجاركية فكان الملك الجديد «رجلها» ملاّكا ضخماً للأراضي والعبيد على ارتباط وثيق مع كهنة سيبار وعالم الأعمال البابلي ولا سيما بيت إكيبي.

وانتصرت الأوليجاركية من حيث المبدأ فهي أبعدت آمل - مردوك شاغل العرش بحق الوراثة معلنة أنه مغتصب، وأجلست على العرش الملك المنتخب نرجال - شارو - أوتسور وظهر الكلدانيون في الحالة الراهنة أنهم متناقضون لأنه كان مهماً لهم أن يكون الملك كلدانياً في حين أن الشرعية بحد ذاتها لا تهمهم كثيراً.

وما إن أصبح نرجال - شارو - أوتسور ملكاً عزز على الفور اتحاده مع الأوليجاركية وتزوجت ابنته غيفيتوم في ١٤ نيسان من عام ٥٥٩ ق.م في عيد رأس السنة الأولى لتملك نرجال - شارو - اوتسور بـ نابو - شوم - أوكين ابن شيريكتوم - مردوك نجل شيمي إيلاني - إكيبي قيم معبد إزيد في بارسيب.[5]

واستقبل تبوؤ نرجال - شارو - اوتسور للعرش في ميديا بالاستحسان: نظراً لأن زوجته كانت ابنة نبوخذ نصر الثاني وآميتيس الميدية، وهذا يعني ابنة أخت الملك الميدي أستياغ. وإشارة لتجديد الاتحاد أعاد الميديون للبابليين صنم الإلهة آنونيت الذي نقلوه في الماضي البعيد من سيبار إلى أراباخ بعد أن وجدوه بعد سقوط آشور تحت حكم الميديين.[6]

وأقلق تعزيز الاتحاد البابلي - الميدي ليديا المجاورة فحرض الملك الليدي كريزو ملك البيريند «كيليكيا الغربية» أبو آش للهجوم على مملكة خومي «كيليكيا الشرقية» حليفة ميديا وبابل وما وراء النهر[أ].

وللحال قام نرجال - شارو - اوتسور في خريف عام ٥٥٧ ق.م بحملة، وعند اقتراب الجيش البابلي أخذ أبو آش بالتراجع تاركاً في مضائق طوروس ألكمائن، ولكن نرجال - شارو - أوتسور اكتشف حيلته بسرعة وحطم المقاتلين الأعداء، وتوغل البابليون في البيريند ونهبوا وخربوا كلاً من عاصمتي هاتين الدولتين مدينة أورا ومدينة كيرشي وأسروا كثيراً من الأسرى. وتخلص أبو آش من مطاردة العدو وهرب إلى ليديا.

ولم يمس نرجال - شارو - اوتسور ممتلكات ليديا وعاد إلى البحر واستولى بالاقتحام على مدينة بيتوسو «بيتي - أوسا» الموجودة على جزيرة صغيرة في البحر واقعة على بعد ٣.٥ كم عن الشاطئ ويدافع عنها حامية قوامها ٦٠٠٠ رجل، وأثناء ذلك حقق الجيش البابلي للمرة الأولى في أعماله القتالية الإنزال البحري بنجاح من

أ- الواقعة في ما وراء النهر - المترجم

السفن، وعلى أثر ذلك يكون البابليون قد اجتاحوا أراضي البيريند من المضيق عند مدينة سالوني «سيلينونتا» حتى الحدود الليدية وبهذا انتهت الحملة وعاد نرجال - شارو - اوتسور إلى بابل في شباط عام ٥٥٦ ق.م.

وفي ذروة الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة الرابعة لتملكه ما بين ١٦ نيسان و ٣ أيار عام ٥٥٦ ق.م توفي نرجال - شارو - أوتسور وأجلس الكلدانيون على الفور ابنه القاصر لا باش - مردوك على العرش ولكن الأوليجاركية قررت في هذه المرة عدم السماح بانتقال العرش بالوراثة وأقدمت الآن بجرأة أكثر من عام ٥٦٠ ق.م معلنة نابونيد «نابو - نائيد» ملكاً وحدث هذا بعد عدة أسابيع من موت نرجال - شارو - أوتسور. وتملك لاباش - مردوك. وليس بعد منتصف أيار من عام ٥٥٦ ق.م.

وخلافاً لأسلافه لم يكن نابو - نيد كلدانياً وإنما متحدر من أصل بابلي وينتمي والده نابو - بالاتسو - إكبي إلى عداد أعظم الوجهاء البابليين شأناً ويحمل ألقاب «الأمير الحكيم» و «الأمير الكامل» و «الوجيه الجسور» و «عابد الآلهة العظيمة».

والشخصية الأكثر أهمية كانت آدّا - غوبي والدة نابو - نيد فهي ولدت عام ٦٤٩ ق.م وعرفت جيداً جميع الملوك بدءاً بـ آشور بانيبال وخلال ٦٨ عاماً من سنة ٦٢٦ ق.م إلى ٥٦٢ ق.م و ٥٦٠ إلى ٥٥٦ ق.م كانت كاهنة الإله سيبا في معبد آخولخول الحراني، وقامت بخدمة الملوك نابو - بلاسر ونبوخذ نصر الثاني ونرجال - شارو - اوتسور ولكنها رفضت خدمة المغتصبين آمل - مردوك ولاباش - مردوك وكانت إحدى القلائل الناجين من الأرستقراطيين البابليين والمناصرة المتعصبة للأوليجاركية، وبغض النظر عن قرابتها من آشور بانيبال كان نابونيد على الأغلب مديناً لأمه بترقّية في المنصب وبالعرش وبرز أكثر بالنسبة لنبوخذ نصر الثاني، ففي عام ٥٩٦ ق.م شغل بطريقة ما حاكم مدينة ريفية بالقرب من بابل، وفي عام ٥٨٥ شارك بصفته سفيراً لبابل في عقد الصلح والاتحاد بين ميديا وليديا الذي وضع حجر الأساس لنظام التوازن الدولي، وكان نابونيد «رجل الأوليجاركية» بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

ومن البدهي أن الكلدانيين لم يستطيعوا التسليم بتبوئه للعرش واستمروا بدعم لاباش - مردوك. وظهر أن في بابل ملكين، وزد على ذلك أنه في سيبار مثلاً كان واحد يعترف ب لاباش - مردوك والآخر بـ نابونيد، وخيم الخطر الحقيقي بالحرب الأهلية الذي لم يدخل في حساب الأوليجاركية ولا نابونيد وعندئذ لجأ نابونيد إلى التحرك السياسي الحاذق فتزوج بالملكة المصرية نيتوكريس أرملة نبوخذ نصر الثاني وتبنى ابن الملك بعل - شار - أوتسور «بيلشاصر»[أ] ابن نبوخذ نصر الثاني

أ- بيلشاصر اسم أكادي معناه «ليحفظ بيل الملك» وهو ابن نبونيدس / نابونيد/ آخر ملوك الإمبراطورية الكلدانية بالتبني وكان شريكه في الملك- وهو الابن الشرعي لنبوخذ نصر الثاني ويرجح أنه ابن ابنته- المترجم

ونيتوكريس، واستمال نابونيد بذاته الكلدانيين الذين يعتبرون بيلشاصر الوريث الشرعي أكثر من لاباش - مردوك وعلاوة على ذلك كان بيلشاصر على اتصال مع دوائر الأعمال في بابل وبالأخص مع بيت اكيبي ووجد لاباش مردوك نفسه في عزلة واغتيل في حزيران من عام ٥٥٦ ق.م وبقي العرش لنابونيد وانتهى انقلاب عام ٥٥٦ ق.م مثل انقلاب ٥٦٠ ق.م بحل وسط بين الأوليجاركية والكلدانيين.

فالاوليجاركيون لم يسمحوا بانتقال الحكم الملكي بالوراثة وأجلسوا رجلهم على العرش، وكل ما كان عليهم أن يفعلوه هو التخلي على مبدأ الشرعية: فنابونيد صاهر السلالة الملكية وظهر إلى جانبه بيلشاصر ابن الملك الكلداني وهكذا لم يحل الخصام القديم، واعتبر الميديون اغتيال لاباش - مردوك واستيلاء نابونيد على العرش البابلي وزواجه من نيتوكريس عملاً عدوانياً وحجة للحرب.

وفي عام ٥٥٥ ق.م قامت مملكة خومي الكيليكية المتحالفة مع ميديا ضد بابل. يعني هي التي حماها نرجال - شارو - اوتسور في عام ٥٥٧ ق.م من عدوان مملكة البريند المجاورة حليفة ليديا، وحطم نابونيد الكيليكيين دون عناء كبير وتكريماً للنصر أهدى أثناء عيد رأس السنة في ٢٨ نيسان عام ٥٥٤ ق.م لمعابد إيساجيله في بابل وإزيد في بارسيب وأميشلام في الكوت ١٠٠ تالنت و ٢١ مَن «٣٠٤.٦ كغ» من الفضة و٥ تالنت و١٧ من «١٦٠ كغ» من الذهب و٢٨٥٠ أسيراً كيليكيا. وبعد ذلك زار مدن أوروك ولارس وأور وغيرها وقام بإهداء معابدها هدايا وفيرة.

إلا أن ميديا وقفت خلف خومي وعبر الميديون الحدود البابلية وحاصروا حران. وأراضي الإمبراطورية البابلية هي عبارة عن بلاد الهلال الخصب الذي تقع حران في مركزه، فبالاستيلاء على هذه المدينة يفصل الميديون بضربة واحدة بابل ليس فقط عن ما وراء النهر الغني وإنما عن مصر وليديا حلفائهم المحتملين أيضاً.

ولا يستطيع نابونيد أن يسمح بأي حال من الأحوال بسقوط حران ورابط مع الجيش في حماه في مركز سورية، ولم يتقرر مصير الحرب بموقعة مكشوفة مع الميديين وإنما تقرر في إيران فهناك قام الفرس في عام ٥٥٣ ق.م بقيادة ملكهم كورش بانتفاضة ضد الملك أستياغ وأخطر الميديين أن يرفعوا الحصار على حران على الفور، وسارعوا لإنقاذ وطنهم وتخلصت بابل من الحرب مع ميديا. وفي هذا الوقت وصل الوفاق بين الأوليجاركية و «رجلها» نابونيد إلى نهايته الذي صار له رؤيته الخاصة للحكم الملكي، ولم يعد أداة مستمعة في أيدي الأخرين وكان الباعث على الصدام مسألة استعادة بناء معبد آخولخول في حران وفي وقتها كانت حران من عداد المدن المميزة في آشور وآخولخول معبد الإله القمر سين كان قد أعاد بناءه آشور بانيبال للمرة الأخيرة بأبهة كبيرة قبل ١٠٠ عام، وفي عام ٦٨٠ ق.م نهبه السكيتيون وبدأ نابونيد الآن بأعمال تجديد الآثار القديمة في آخولخول دون أن يدخر ذهباً ولا فضة ولا أرزاً واشتركت القوات وكل سكان الإمبراطورية من غزة عند الحدود المصرية حتى الخليج العربي في البناء. ووجد نابونيد أحجار الأساس للملوك الآشوريين شلمناصر الثاني «٨٥٩-٨٢٤ ق.م» وآشور بانيبال «٦٦٩-٦٢٧ ق.م».

وأعاد بناء المعبد على النمط الآشوري وليس على النمط البابلي وتجرأ أن يضع في آخولخول الثور نفسه كالذي يقف أمام معبد إيساجيله في بابل ولم يخفِ نيته بإعطاء آخولخول تلك الأهمية مثل التي يتمتع بها معبد إكور السومري - البابلي القديم المقدس في مدينة نيبور.

ورأت الأوليجاركية حقيقة أن في أعمال نابونيد تطاولاً على حقوق وصلاحيات أضخم المعابد البابلية، ومحاولة لإيجاد الدعم من الأقاليم وبخاصة الآراميه واضعاً إياهم جنباً إلى جنب مع الجنسية البابلية. ونظمت الأوليجاركية مقاومة ضد الملك محركة المواطنين ضده وكذلك التذمر من ضريبة البدل التي اضطر إلى دفعها بمناسبة البناء في حران ذلك الإقليم من الأقاليم[أ] ورفض البابليون بناء آخولخول وهذا يعني دفع ضريبة البدل، ولكن نابونيد أصر على رأيه وأبلغهم «طالما أني لم أنهِ - أكمل - بناء آخو لخول ولم أحقق أمنيتي - أمنع الأعياد - وألُغيَ عيد رأس السنة الجديدة» ولم يتكلم أحد مع البابليين بهذه اللهجة منذ زمن سنحاريب وآشور بانيبال وبعد الأقوال تأتي الأفعال ففي سابقة لا مثيل لها في تاريخ بابل: - ترك الملك مملكته ولم يظهر في بابل مدة عشر سنوات كاملة على التوالي.

ومن لحظة الانقطاع عن التابعية البابلية كان في جبال عمان للاستشفاء «للعلاج» وفي شهر كانون الأول جمع القوات آمور وآدوم وبعد ذلك سلم نابونيد قيادة القوات المرابطة في بابل إلى ابن الملك بيلشاصر وعينه النائب الأول له وأعطاه السلطة على بابل وتحرك هو بنفسه مع القوات المعبأة في ما وراء النهر إلى العربية.

وكان حساب نابونيد دقيقاً فالجيش الكلداني لاقى تعيين بيلشاصر بابتهاج ولم تستطع الأوليجاركية تدبير أي شيء ضده، وأصبحت بابل تحت الديكتاتورية العسكرية التي يتقلدها ملك شرعي مفوض، والملك نفسه موجود خارج حدود منال الأوليجاركيين، وكان من المستحيل الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة، وبالتالي انتخاب ملك آخر بدلاً من نابونيد وبقي بيلشاصر والكلدانيون على الولاء لنابونيد وكانت إمكانية انقلاب حكومي جديدة مستبعدة.

وفي غضون ذلك توغل نابونيد في سهوب وصحراء العربية ورافقته القوات المجندة من آراميي الأقاليم الغربية المخلصة له وليس لبابل، وبهم احتل مدينة تيماء العربية وأباد جميع سكانها وعلى رأسهم ملكهم، وبعد ذلك خضعت الواحات والمدن ديدان «الأولى» وفدك وخيبر ويادي ويثرب وأصبح كل النصف الشمالي لشبه الجزيرة العربية تحت حكم نابونيد وصارت مدينة تيماء مقر إقامته، وهنا بنى قصراً

أ- المقصود بذلك أنه من الممتلكات البابلية وليس بابليا - المترجم

شبيهاً للقصر البابلي، وأنشئت في الواحات المختلفة مستعمرات بابلية - آرامية استوطن فيها أناس من أصول إثنية مختلفة فمثلاً عثر في تيماء على لوحة (بلاطة) منذ زمن نابونيد عليها كتابة آرامية ونقش تذكاري على النمط الآشوري معمولة بناءً على طلب سلام - شوزوبا ابن بيتوسيري يعني ابن المصري بتسمية بابلية - آرامية.

وأنشأ نابونيد لنفسه في العربية مملكة واسعة وكانت تحت سيطرته جميع طرق القوافل عبر الصحراء إلى بابل وما وراء النهر ومصر التي بقي على اتصال منتظم معها. وحملوا إليه باستمرار ومن بابل ومن أوروك على الأخص المواد الغذائية إلى تيماء، وصار الآن حتى خسارة حرّان لا تؤدي إلى عزلة بابل، وتحسن الوضع الإستراتيجي للإمبراطورية بصورة جدية والشيء الرئيس لنابونيد إنه حصل على إمكانية خوض النضال مع الأوليجاركية البابلية الجبارة.

وتتبع بيلشاصر المستند إلى الجيش بانتباه مجرى الأمور في بابل وأصبح الأوليجاركيون مغتاظين لا حول لهم ولا قوة يلعنون الملك مضطرمين حقداً عليه، ونموذج الأخير «أي نابونيد» محفوظ في الكتاب المقدس في سفر النبي دانيال حيث دعي في المراجع القانونية نبوخذ نصر. وتلك القصة المشهورة عن حلم نبوخذ نصر[أ] هذا هو مضمونها: رأى الملك في الحلم شجرة قوية وطولها حتى السماء مكسوة بأوراق كثيفة وثمارها كثيرة وفي أغصانها عششت الطيور وعلى أوراقها وثمارها تغذت وحوش الحقول، وبأمر من رب السماء قطعوا هذه الشجرة ولكن تركوا ساق أصلها في الأرض وبقيود من حديد ونحاس.

ولم يستطع حكماء بابل ولا سحرتها ولا الكلدانيون والعرافون تفسير هذا الحلم، عندئذٍ استدعى الملك دانيال وهذا شرح له ما هي الشجرة - إنها المملكة البابلية، ومعنى الحكم هكذا: «يطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران ويبلونك بندى السماء فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء، وحيث أمروا بترك ساق أصول الشجرة فإن مملكتك تثبت لك عندما تعلم أن السماء سلطان. لذلك أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبر، وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال اطمئنانك».

وتحققت كلمات دانيال وظل الملك سبعة أزمنة «سنوات» في مجتمع الحيوان وتغطى بالشعر كالأسد ونمت أظافره كالطيور وأكل العشب وشرب الندى طالما لم يتعقل، وبعد ذلك عاد إلى بابل إلى المملكة.[7] ومن دون شك يقع في أساس هذه القصة أهجية سياسية بابلية أو فكاهة من ذلك الزمن ظهرت في وسط معارضي

أ- هنا يتحدث المؤلف بتصرف ويمكن الوقوف على النص الأصلي في الكتاب المقدس سفر النبي دانيال الإصحاح الرابع الصفحة ١٠٨٤- المترجم.

الملك ولقيت رواجاً بين أوساط السكان ولكن نابونيد كان من الصعب تعكيره بالفكاهات وبقاؤه في تيماء لم يمنعه إطلاقاً من أن ينزل بالأوليجاركية الضربة تلو الضربة. وأعداؤه الرئيسيون هم دوائر إيساجيله الأوليجاركية في بابل وإزيد في بارسيب وإبابّار في سيبار وهذا يعني أوليجاركية المملكة البابلية.

وحاول نابونيد أن يواجه أوليجاركيات المدن البابلية المتحالفة مع بعضها بعضاً وبالدرجة الأولى أوروك وأور. ففي أوروك سلّم السلطة في عام ٥٥٣ ق.م إلى رجاله، فصار زيري - إبن إبنِ نجل أكيبي مدبراً لمعبد آنا «٥٥٣-٥٤٣ ق.م» وظهر إلى جانبه وجيه جديد هو نابو - شارو - أوتسور الرأس الملكي وصياً على معبد آنا «٥٥٣-٥٤٣ ق.م» الذي لم يكن منتخباً من الهيئات الحاكمة وإنما معيناً من الملك مراقباً على مزارع المعبد وهيئات إدارة المدينة[8]، وبواسطة هذين الشخصين أخضع نابونيد وبيلشاصر لهما كلياً أوروك ومعبدها آنا واستمدا من هناك الوسائط والناس للصراع مع الأوليجاركية البابلية، واستولى نابونيد وبيلشاصر تحت ستار الحفظ على الكثير من عقارات المعابد الواسعة وأجروها لرجالهم وينتمي لهؤلاء الأخيرين مثلاً أنجال باسي - شوم - أوكين - وسيليم - بعل وأبناء بعل - زيري وكالبا ابن اكيشي وكانوا من أصل بابلي حيث مارسوا المراباة ولكن لم يقدروا أن يشقوا طريقهم إلى أعلى من مجال الأعمال، عندئذ ودعوا العاصمة في عام ٥٥٩ ق.م وارتحلوا باحثين عن الحظ في أوروك وهنا اشتغلوا باستئجار أراضي المعبد في أوروك واستأجروا ليس فقط الأراضي الملكية الموقوفة للملك وإنما أراضي المعبد الأخرى الأوسع والأربح والتي من أجلها تذللوا إرضاءً للمديرين الأوروكيين المحليين.

وكان في أيدي شوم - أوكين وسيليم - بعل وكالبي مالا يقل عن ١٤ ضيعة وهذا يعني عشرات الآلاف من هكتارات الأراضي الخصبة التي تدر ملايين الليترات من التمر والشعير والسمسم وغيرها من المنتجات، ونال رجال الأعمال حق الجنسية الأوروكية وشغلوا مناصب بارزة في هيئة الإدارة في أوروك وامتلكوا البيوت فيها وأحاطوا نفسهم بعدد كبير من الزبائن ومن البدهي أن تسلط هؤلاء القروش[أ] القادمين من العاصمة أثار استياء الأوروكيين الذين تخلصوا منهم فقط في عام ٥٣٩ ق.م عندما سقط الملك نابونيد واستولى الفرس على بابل: حيث طرد أنجال - باسي وأمثالهم وصودرت بيوتهم وأراضيهم.[9]

وتصرف نانبونيد في أور بشكل مختلف بعض الشيء مستفيداً من الخسوف القمري الذي فسره المتنبئون المخلصون له بأنه رغبة سين إله القمر بأن تكون له عروس فاستعاد من جديد في أور مؤسسة «منصب» الكاهن الأكبر خادم الإله سين القديمة المنسية منذ زمن طويل. وبعد التفاسير المتكررة للعرافين تبين أن الشكل الخليق بأن يكون مثل هذا الكاهن هو ابنة نابونيد نفسه باسم بعل - شالاتي - نانا «إله

أ- سمك القرش - المترجم

النصر - إله القمر نانا» نانا - الاسم السومري للإله سين في أور» وتمت رسامتها بهذه المرتبة وأعيد لأجلها خصيصاً بناء إيكيبار المعبد - القصر المندثر منذ زمن بعيد. مقر الإقامة القديم للكاهن الأكبر للإله سين. وهكذا تحولت أور مع معبد الإله سين إيكيشير كاليم القديم إلى حصن لسياسة نابونيد ولم تكن الضربة التي أنزلها «النشاط الأثري» لنابونيد بالأوليجاركية أقل قوة من ذلك وكتب العالم الأثري الإنكليزي ليونارد فوللي واصفاً إياها «لا شك أن البدع الكثيرة لنبوخذنصرلم تكن بطيب خاطر خليفته الأكثر أرثوذكسية الملك نابونيد. وإن عدم شعبية هذا الملك يمكن تفسيرها إلى حد ما بانحرافه عن السياسة الدينية لنبوخذنصر. التي تضاربت بعض الشيء مع التقاليد القديمة العزيزة على قلب نابونيد وتوافقت كلياً مع الكهنة مقابل ذلك تماماً، وأعاد نابونيد بناء فقط المعابد «المجددة» منذ وقت غير بعيد وغير المحتاجة إطلاقاً إلى إعادة بناء، وقام بذلك لكي يصحح «أخطاء» سلفه».[10]

وفي عام ٥٥٢ ق.م تم بأمر من نابونيد البدء بإعادة معبد إبابار في سيبار الذي أعاد بناءه نبوخذ نصر الثاني في عام ٥٩٧ ق.م والذي لا يحتاج إلى أي إصلاحات وأعلن نابونيد أن نبوخذ نصر الثاني لم يعثر على حجر الأساس القديم، ولهذا السبب شوه منظر المعبد وعلى هذا الأساس هدمت جميع مبانيه وبعد حفريات مثابرة عثروا على حجر الأساس للملك الأكادي القديم نارام سين «٢٢٩٠-٢٢٥٤ ق.م» الذي وفقاً لحسابات الاختصاصين الملكيين زعموا أنه عاش منذ ٢٣٠٠ سنة وبدئ بحسب مخطط نارام سين القديم بالبناء الجديد لإبابار وزقورته إ - إيديب - آزاكي في مكان المباني المهدومة وفي سيبار ثارت عاصفة حقيقية. أليس من المضحك القول: - إن عدة أجيال من السيباريين برأي نابونيد امتلكوا مالا يعلمه إلا الإله بدلاً من المعبد.

ولكي يهدئ المواطنين الساخطين ويوجه غضبهم تجاه الكهنة والهيئات الحاكمة اجتمع بأمر من نابونيد كل من مجلس الشيوخ في سيبار والمجلس الشعبي للمواطنين البابليين وقدموا إليهم كل جمهرة الاختصاصين الملكيين - علماء الرياضيات والمؤرخين والحكماء وكاشفي الأسرار من أكاديمية «مجمع علوم» بيت - مُمو الذين ما من أحد من السيباريين يقدر أن يتبارى معهم. وعلى أثر ذلك ذهلت المدينة أكثر بالخبر الصاعق: لقد أعلنوا باسم نابونيد أن صنم إله الشمس شمش السيباري هو استقرابي[أ] وتزوير جاهل لأن تاجه ينقصه رمز الهلال. وبما أن إله الشمس - شمش يعتبر ابنا لإله القمر سين فقد خرج السيباريون نهائياً من المعادلة: - إذن حسناً إنه لم يكن عندهم معبد حقيقي ولكن حتى ولو بدلاً من الإله الحقيقي كانوا قد خدموا من جيل إلى جيل قرمة من الخشب لا أكثر وهذا أكثر مما ينبغي حقاً

أ- أي غير مكمل - المترجم

وبخاصة أن الذي أقنعهم هو أنهم بُشِّروا أن الإله شمش حامي سيبار أقل درجة من سين.

إله إقليم من الأقاليم المفتقرة كحران وأور وبدأت العواطف وجرت العرافة «قراءة البخت» بالأكباد «أكباد الطيور والحيوانات» ثلاث مرات واجتمع مواطنو سيبار البابليون وخطب فيهم أكبر العلماء بخطاباتهم الصعبة الفهم.

أما جنود بيلشاصر المحتشدين فضيقوا على حشود الفلاحين ولم يسمحوا لهم بالتحرك وأضطر السيباريون إلى الاستسلام وبعد هذا الانتصار وبأمر من نابونيد أعيد بناء أولماش معبد الإلهة آنونيت للمرة الثانية في مدينة أغاد المجاورة لسيبار المعاد بناؤه أيضاً من قبل نبوخذ نصر الثاني وفي سيبار نفسها أقيم معبد جديد للإله بونين.[11]

وفي عام ٥٤٦ ق.م حل المصير نفسه بمدينة لارس حيث كما في سيبار يعبد شمس إله الشمس هدم معبد إبابار المحلي وزقورته إدورانا اللذان جددهما نبوخذ نصر الثاني وشيدا من جديد على حجر أساس الملك حمورابي «١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م».[12]

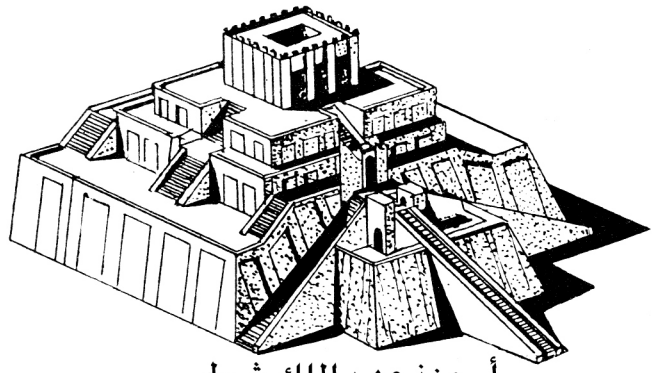

أ ـ منذ عهد الملك شولجي

ب ـ منذ عهد الملك نابونيد

زقورات في أور

وفي مدينة أور أعيد بناء معبد الإله سين آلو جال - مالجا - سيدي وزقورته إكيشيرجال على النمط القديم للملوك السومريين أورنام «٢٢٣٢-٢٢١٤ ق.م» وشولجي «٢٢١٤-٢١٦٧ ق.م».

وهنا قُبِض على نابونيد متلبساً بالجريمة ولكن ليس من قبل معاصريه وإنما بعد ٢٥٠٠ عام من قبل الإنكليزي ليونارد فوللي المنقب في أور في الأعوام «١٩٢٢-١٩٣٤ م» فالزقورة التي زعم نابونيد أنه «أعاد بناءها» على النمط السومري كانت بسبعة طوابق بينما كانت في الحقيقة في عهد الملكين أورنام وشولجي فقط من ثلاثة طوابق[13] وهكذا ثارت ثائرة معارف نابونيد الحقيقيين «علماؤه» الأوباش في مجال التقاليد القديمة.

ولكن تعظيم نابونيد لعلم الآثار قد حمل أكثر من طابع الشخصية الغريبة الأطوار طالما أن القيام بإعادة البناء أدى إلى إحداث الفزع والتضليل التام للبابليين الأتقياء الحسني السيرة الساذجين.

واستمر نابونيد بالإقامة دون أن يغادر العربية ولم يظهر الملك عالم الآثار كما سموا نابونيد مراراً كثيرة أي رغبة بالنظر إلى إعادة النظام القديم في أوامره إلى المعابد والزقورات! حتى في عام ٥٤٧ ق.م عندما توفيت والدته آدا - كوبي عن عمر ١٠٢ سنة لم يظهر نابونيد في تشييع جنازتها. وقدم التحية الأخيرة لربة المنزل التي احتفظت حتى آخر حياتها بصفاء الذهن والصحة الجيدة كل من بيلشاصر ابن الملك وقواته وخلد نابونيد ذكرى الأم ببلاطتين «مسلتين» كتب عليهما «سيرة حياتها» وكانتا موضوعتين في أخولخول معبد حران.

ولم يهتم نابونيد بعلم الآثار الذي بواسطته فقط أراد أن يبرهن علانية على جهل الكهنة الذين يمقتهم متهماً إياهم بالهرطقة والإلحاد، وينتزع من أيدي الأوليجاركية قيادة المعابد لأن كل «تجديد» للمعابد يرافقه حتماً تغييرات في الطقوس وتبديل في الكهنوت. وفي الوقت نفسه استعاد نابونيد المعابد والعبادات المندثرة وأقام رجاله على رأسها. ولم يمس مباشرة آلهة بعل - مردوك ونابو ومعبديهما إيساجيله وإزيد ولكنه رفع مقابل ذلك من دور وأهمية الإلهين سين وشمس اللذين ازدهرت عبادتهما في حران وأور وسيبار ولارس الذين قوضوا تفوق بابل وبارسيب حصنا المعارضة الأوليجاركية في الأمور الدينية مع كل العواقب الناتجة عنها. وأنزل نابونيد ضربة قاسية بالأوليجاركية بإيقاف الأعياد وبخاصة عيد رأس السنة الجديدة المرتبط بابتعاد الملك في تيماء.

وصُدِمَ البابليون البسطاء بقسوة بحرمانهم من الفوائد والإيرادات التي لا تحصى من إهمال الحجاج في بابل وبارسيب.

ويضاف إلى كل ذلك عدة سنوات على التوالي من المحل وصلت إلى ذروتها[14] في بابل في الأعوام «٥٤٦-٥٤٤ ق.م» حيث عانت النواعير من العطش، وفي الحقول لم تعد تتعالى نداءات الفلاحين المتهللة «ع اللالا» وتغبرت وجوه الناس وفي الشوارع لم تعد جموع الناس تسعى جيئة وذهاباً وردد الأوليجاركيون بإلحاح أن هذا التأديب هو بسبب طغيان نابونيد الذي اضطر الآلهة إلى ترك البلاد.

أما الأعداد الغفيرة من العرافين والمتنبئين المقيمين على النفقة الملكية فقد أوحوا إلى البابليين أن الآلهة محتدمة غيظاً على الأوليجاركيين الذين اضطروا الملك إلى ترك بابل وصدقوهم لأن الملك كان بعيداً أما الأوليجاركيون فهم هنا في مكانهم.

وفي النهاية تفاقم الوضع الدولي للغاية. فقد ظهر الملك الفارسي قورش الذي قام ضد الملك الميدي استياغ في عام ٥٥٣ ق.م وخلص بابل من الحرب مع ميديا خلافاً لكل التوقعات أبعد من أن يكون متمرداً صغيراً. ففي عام ٥٥١ ق.م عم القلق الشرق الأدنى كله: لقد خسرت ميديا الحرب بصورة واضحة مع الفرس. وبدأ نابونيد على الفور المحادثات لتشكيل تحالف ضد الفرس واستجاب لدعوته كل من الفرعون المصري أماسيس والملك الليدي كريزو والعرب والملك الهندي استياغ. وانضم إلى الاتحاد حتى بعض المدن اليونانية وبالأخص إسبارطة.

ولكن الوقت كان قد فات وسقطت ميديا تحت ضربات قورش في عام ٥٥٠ ق.م وفي عام «٥٤٧-٥٤٦ ق.م» ليديا الدولتان الجبارتان في الشرق الأدنى وانتهتا من الوجود وانهار نظام التوازن الدولي.

وأصبحت بابل وجهاً لوجه مع الفرس الذين ابتدؤوا بالاستيلاء على ما وراء النهر والممتلكات البابلية الأخرى وقتلوا المسافرين وقطعوا طرق التجار وشلت التجارة البابلية وفي هذه الظروف اضطرت الأوليجاركية إلى الاستسلام أمام نابونيد، والتمس وفد من المواطنين البابليين العفو من الملك وناشده العودة إلى بابل، وفي عام ٥٤٣ ق.م بدل نابونيد الغضب بالرحمة وحضر إلى العاصمة وأول عمل قام به هو إكمال بناء معبد آخرلخول في حران واضطر البابليون في هذه المرة إلى القبول بذلك، وبمناسبة الاحتفال بهذا الحدث دعي المجلس الشعبي وجرى خلاله تكريس الصنم «التمثال» الذهبي للإله سين الذي يتحدث عنه سفر النبي دانيال الإصحاح الثالث.

«نبوخذ نصر الملك «يعني نابونيد» صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً «٣٠ م» وعرضه ستة أذرع «٣ م» ونصبه في بقعة دورا في ولاية بابل ثم أرسل نبوخذ نصر «يعني نابونيد» الملك ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال الذي نصبه نبوخذ نصر الملك، ووقفوا أمام التمثال الذي نصبه نبوخذ نصر ونادى منادٍ بشدة قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف تخرون وتسجدون لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر الملك ومن لا يخر ولا يسجد ففي تلك الساعة يلقى في وسط أتون نار متقدة» «لأجل ذلك وكما سمع كل الشعوب صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير وكل أنواع العزف خرّ كل الشعوب والأمم والألسنة وسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر الملك «يعني نابونيد»»

وروج الأوليجاركيون الإشاعات بأن نابونيد كرّس ما هو إلهه سين الذي لا يشبه على الإطلاق الإله بشيء ولكنهم لم يجرؤوا على معارضته علناً.

وتغلب نابونيد ولكنه لم يهزم الأوليجاركية، وتقهقرت الأوليجاركية مؤقتاً ضامرة في نفسها منتظرة ساعة الانتقام وحلت هذه الساعة بعد أربع سنوات ولكن على أسوار بابل المقدسة كانت قد خطت رموز كتابية نارية «منا، منا. تقيل وفرسين».